استخدام القوة

للكاتب الأمريكي: وليام كارلوس ويليامز

كانوا مرضى جداً بالنسبة لي وكل ما كان لدي عندهم هو الاسم «أولسون» أرجوك تعال بأسرع ما يمكن فابنتي مريضة جداً. عندما وصلت كانت الأم في استقبالي... سيدة ضخمة... رهيبة غاية في النظافة والاعتذار ولم تزد على أن قالت: ـ أهذا هو الطبيب؟ ثم أدخلتني. وفي الجهة الخلفية من المنزل أضافت... معذرة لأننا نبقيها في المطبخ حيث الدفء فالمكان رطب أحياناً كانت الطفلة جالسة في حضن والدها قرب طاولة المطبخ، مرتدية زيها كاملاً ولقد حاول الأب أن ينهض إلا أنني أشرت إليه بألا يفعل وخلعت معطفي ثم بدأت أتفحص الأمر.

لاحظت أنهم كانوا جميعاً في غاية القلق... كانوا يديمون النظر إليّ بشك وانعدام ثقة. وكالعادة ففي مثل هذه الأحوال لم يكونوا ليدلوا إلي بأي معلومات أكثر مما يتحتم عليهم وكان علي أنا أن أخبرهم فهم يدفعون لي ثلاثة دولارات لهذا. كانت الطفلة ترمقني بنظرات ثابتة باردة... خالية من أي تعبير لم تتحرك... وبدت هادئة في داخلها... طفلة صغيرة... شديدة الجاذبية... قوية كعجل إلا أن وجهها كان متوهجاً وكانت تتنفس بسرعة... ولاحظت ارتفاعاً في حرارتها... كان شعرها أشقر... رائع الجمال كأولئك الأطفال الذين توضع صورهم على كتيبات الدعايات وزوايا الفوتوغرافيا.

ـ معها حمى منذ ثلاثة أيام! استهل الأب: ـ ولاندري من أين جاءت. لقد أعطتها زوجتي بعض الأشياء... تعرف ما أعني... كما يفعل الناس إلا أن ذلك لم يُجدِ نفعاً... الكثير من الأطفال مرضى هذه الأيام لذا استدعيناك لفحصها وإخبارنا عما بها... وكما يفعل الأطباء غالبا فقد بدأت بسؤال تجريبي كنقطة انطلاق:

ـ هل شكت من ألم في الحلق؟ وأجاب الوالدان معاً: كلا كلا حلقها لا يؤلمها.. هل يؤلمك حلقك؟ «سألت الأم الطفلة» إلا أنها لم تجب كما لم ترفع ناظريها عني.

ـ هل ألقيت نظرة على حلقها؟ ـ حاولت «ردّت الأم» لكن لم أتمكن من ذلك. لقد اكتشفت حالات «دفتريا» خلال هذا الشهر في المدرسة التي تذهب إليها هذه الطفلة وكان يبدو جلياً أننا جميعاً مهتمون بهذا الأمر على الرغم من أن أياً منا لم يتحدث عنه ـ حسناً «قلت»... يجدر بنا أن نلقي نظرة على الحلق أولاً ابتسمت محاولاً أن أبدو في أفضل حالات مهنتي وقلت للطفلة بعد أن تحريت عن اسمها: هيا تعالي! قلت ملاطفاً فقط افتحي فمك ودعيني أنظر... ـ إنه رجل لطيف «قالت الأم» انظري كم هو لطيف معك... هيا... افعلي ما يأمرك به... سوف لن يؤذيك. وصررت على أسناني بامتعاض... فقط لو توقفوا عن استعمال كلمة «يؤذي» فلربما استطعت أن أصل إلى نتيجة، على أني لم أسمح للضيق أن يعكر صفوي فدنوت من الطفلة ثانية ببطء وهدوء... وحالما حركت مقعدي دانيا منها قليلاً أطلقت يديها تجاه عيني بحركة قط غريزية مفاجئة... وكادت أن تصل إليهما وهي حقا قد أطاحت بنظارتي في الهواء لتسقط على أرضية المطبخ دون أن تنكسر لحسن الحظ!! وكاد كلا الوالدين أن يختبئ داخل نفسه حرجاً واعتذاراً ـ أيتها الفتاة السيئة... أمسكتها أمها وهزتها بيد واحدة بعنف... انظري إلى ما فعلت بهذا الرجل الطيب... بالله عليكم! «صرخت» لا تلقبوني بالرجل الطيب أمامها... إنني هنا لأنها قد تكون مصابة بالدفتريا وقد تموت من جراء لكن ذلك لا يهمها... اسمعي... سوف نلقي نظرة على حلقك... أنت كبيرة إلى حد تعين معه ما أقول... هل تفتحينه بنفسك أم نفعل ذلك عنوة؟ لا حركة البتة! حتى تعابيرها لم تتغير فقط تسارعت أنفاسها أكثر فأكثر. عندها.. بدأت المعركة! كان عليّ أن أجري فحصاً حلقياً لضمان سلامتها... إلا أنني بدأت فأخبرت والديها أن الأمر متروك لهما وشرحت لهما الخطر المحدق على أنني أضفت بأنني لن أصر على الكشف طالما تحملا مغبة ذلك!

ـ إن لم تفعلي ما يقوله الطبيب فسوف تذهبين إلى المستشفى!

ـ حقاً؟!! ابتسمت لنفسي... لقد وقعت في غرام تلك الصغيرة المتوحشة أما أبواها فكانا جديرين بالازدراء... خلال ما تلى من صراع ازداد خضوعاً وخنوعاً وانهياراً في الوقت الذي علت فيه الطفلة إلى مراتب من الغضب الدامي نشأ عن رعبها مني... ولقد بذل الأب جهده... وكان رجلا كبير الجسم إلا أن كونها ابنته إضافة إلى خجله من تصرفها وخوفه من أن يصيبها أذى كل ذلك جعله يرخي قبضته حولها في ذات اللحظة العصبية التي أوشكت أن أحقق فيها النجاح، وددت لو قتلته! إلا أن رعبه أيضاً من أن تكون مصابة بالدفتيريا جعله يطلب مني أن أكمل رغم أنه كان على حافة الإغماء فيما كانت الأم تروح خلفنا وتغدو خافضة يديها... رافعة إياهما في قلق من شر مرتقب.

ـ ضعها في حضنك وامسك بكلتا يديها! «قلت آمراً» على إنه ما أن فعل حتى أطلقت البنت صرخة مدوية... إياك! أنت تؤلمني ـ اترك يدي ـ دعهما قلت لك! وأضافت صارخة برعب وهلع: توقف! توقف ـ أتظن أن بإمكانها احتمال ذلك أيها الطبيب!

ـ اخرجي من هنا! «قال زوجها»... أتريدين أن تموت ابنتك بالدفتيريا؟.

ـ هيا... امسك بالطفلة قلت للأب، عندها أمسكت رأسها بيسراي محاولاً أن أضع ضاغط اللسان بين أسنانها فقوبلت بأسنان مطبقة دون أمل، على أن غضباً شديداً سرعان ما اجتاحني أيضاً نحو الطفلة. وحاولت أن أسيطر على نفسي فما استطعت... أعرف كيف أعرض الحلق للفحص كما أنني كنت أبذل غاية جهدي وعندما تمكنت أخيراً من وضع الملعقة الخشبية خلف آخر ضرس وأوشكت أن أدخل طرفها في تجويف الحلق فتحت للحظة فاها وقبل أن أتمكن من رؤية شيء أطبقت أسنانها عليها بشدة فأحالتها فتاتاً قبل أن أتمكن من إخراجها ثانية.

ـ ألست خجلة من نفسك؟ «صرخت بها الأم»... أن تتصرفي هكذا أمام الطبيب؟!!

ـ احضري لي ملعقة بمقبض أملس من أي نوع كان! «قلت للأم» سنتابع العملية... كان فم الطفلة يدمي وبدا لسانها مجروحاً، كما كانت تطلق صرخات هستيرية طويلة... لربما كان من الأفضل لو أنني ذهبت وعدت بعد ساعة أو أكثر... ذلك لا شك كان أفضل... إلا أنني رأيت طفلتين على الأقل قد توفيتا في سرير الإهمال... وفي حالات كهذه! ولشعوري بضرورة إجراء الفحص عاجلاً أو آجلاً شرعت مرة أخرى.

لكن أسوأ ما في الأمر هو أنني تخطيت حدود المعقول... كنت سأقطّع الطفلة بين يدي إرباً خلال نوبة غضبي... مستمتعاً بذلك... أجل... كانت مهاجمتها متعة أحسستها في توهج وجه تلك الصغيرة! لا بد وإنها محصنة ضد مكرها!... قد يقول الشخص لنفسه في أوقات كهذه ويجب أن يحُمى الآخرون منها. تلك ضرورة اجتماعية... وتلك الأشياء جميعها صحيحة إلا أن الغضب الأعمى والإحساس بخجل الكبار الناجم عن الرغبة في إرخاء الطاقة العضلية كل ذلك شكل العامل المؤثر، وعلى المرء أن يستمر حتى النهاية. وفي هجوم أخير غير عادل أحكمت القبضة على رقبة الطفلة وفكّها و أدخلت الملعقة المعدنية الثقيلة إلى حلقها حتى انسد فمها... وهنا وضح الأمر... كان الغشاء يغطي كلتا اللوزتين.. لقد حاربت بشجاعة كيما تمنعني من اكتشاف سرها... ظلت تخفي أمر احتقان حلقها عن والديها لثلاثة أيام كما ظلت تكذب عليهما فقط كي تهرب من نتيجة كهذه... أما وقد انكشف كل ذلك فقد كانت غاضبة جداً، كانت في موقف الدفاع سابقاً إلا أنه وبعد أن حدث ما حدث فقد هجمت محاولة الإفلات من حضن أبيها لتطير نحوي ودموع الهزيمة تعمي ناظريها...